صعاليك الصَّحافة(١)

ـ ٤ ـ

ـ تتمَّةٌ ـ

جاء أبو عثمان وفي بُروز عينيه ما يجعلهما في وجهه شيئاً كعلامَتَيْ تعجُّبٍ ألفتهما الطَّبيعة في هذا الوجه ، وقد كانوا يلقِّبونه (الحدقيُّ) فوق تلقيبه بالجاحظ ، كأنَّ لقباً واحداً لا يبين عن قبح هذا النتوء في عينيه إلا بمرادفٍ ، ومساعدٍ من اللُّغة . . . وما تذكَّرت اللَّقبين إلا حين رأيت عينيه هذه المرَّة .

وانحطَّ في مجلسه كأنَّ بعضه يرمي بعضه من سخطٍ ، وغيظٍ ، أو كأنَّ من جسمه ما لا يريد أن يكون من هذا الخلق المشوَّه ؛ ثمَّ نصب وجهه يتأمَّل ، فبدت عيناه في خروجهما كأنَّما تهمَّان بالفرار من هذا الوجه الَّذي تحيا الكآبة فيه ، كما يحيا الهمُّ في القلب ، ثمَّ سكت عن الكلام ؛ لأنَّ أفكاره كانت تكلِّمه .

فقطعتُ عليه الصَّمت ، وقلت : يا أبا عثمان ! رجعت من عند رئيس التَّحرير زائداً شيئاً ، أو ناقصاً شيئاً ؛ فما هو يرحمك الله ؟ !

قال : رجعت زائداً : أنِّي ناقصٌ ، وها هنا شيءٌ لا أقوله ، ولو أنَّ في الأرض ملائكةً يمشون مطمئنِّين ؛ لوقفوا على عمِّك ، وأمثال عمِّك منِّي كتَّاب الصُّحف يتعجَّبون لهذا النَّوع الجديد من الشُّهداء ! .

---

(١) كتب الدُّكتور زكي مبارك مقالاً في جريدة المصري الغرَّاء ، زعم فيه : أنَّا قلنا : « إنَّ الصَّحافة لا تنجح إلا في أيدي الصَّعاليك » ولا ندري كيف أحسَّ هذا المعنى ، ثمَّ تهدَّدنا ! ! فقال : « ما رأيك إذا وقف لك أحد الصَّحفيين (ولعلَّه يعني نفسه) في معركةٍ فاصلةٍ ورماك بحبِّ التكلُّف ، والافتعال في عالم الإنشاء والتأليف » ! « ما رأيك إذا حملك رَجلٌ منهم (ولعلَّه يعني نفسه) على عاتقه ، وألقى بك في هاوية التَّاريخ لتعيش مع صعصعة بن صوحان ؟ أبلغ خطباء العرب ، وأنطقهم » .

وجوابُنا لصاحبنا هذا : إنَّ وزارة الدَّاخلية اطَّلعت على مقاله ، فأمرت جميع المحالِّ التي تبيع لعب الأطفال ألا يبيعوا : « معركةً فاصلةً » ولا « هاوية تاريخ » . (ع).

وقال ابن يحيى النَّديم : دعاني المتوكِّل ذات يومٍ ، وهو مخمورٌ ، فقال : أَنْشِدْني قول عمارة في أهل بغداد ، فأنشدته :

ومَـنْ يشتـري منِّـي ملـوك مُخَـرِّمٍ أَبِعْ « حسناً » وابنَـيْ هشـامٍ بـدرهـمِ
وأُعطِـي « رجـاءً » بعـد ذاك زيـادةً وأمنـحُ « دينـاراً » بغيـر تنـدُّمِ

قال أبو عثمان :

فـإنْ طلبـوا منِّـي الـزِّيـادةَ زِدْتُهـم أبـا دُلَـفٍ والمستطيـل بـن أكثـمِ

ويلي على هذا الشَّاعر اثنان بدرهمٍ ، واثنان زيادةٌ فوقهما لعظم الدِّرهم ، واثنان زيادةٌ على الزِّيادة لجلالة الدِّرهم ، كأنَّه رئيس تحرير جريدةٍ يرى الدُّنيا قد ملئت كتَّاباً ، ولكن ها هنا شيئاً لا أقوله .

وزعموا : أنَّ كسرى أبرويز كان في منزل امرأته شيرين ، فأتاه صيَّادٌ بسمكةٍ عظيمةٍ ، فأعجب بها ، وأمر له بأربعة آلاف درهمٍ ، فقالت له شيرين : أَمَرْتَ للصَّيَّاد بأربعة آلاف درهم ، فإنْ أمرتَ بها لرجلٍ من الوجوه ؟ ! قال : إنَّما أَمَر بما أمر للصَّيَّاد ! فقال كسرى : كيف أصنع ، وقد أمرتُ له ؟ .

قالت : إذا أتاك ؛ فقل له : أخبرني عن السَّمكة ، أذكرٌ هي أم أنثى ؟

فإن قال : أُنثى ؛ فقل له : لا تقع عيني عليك حتَّى تأتيني بقرينها . وإن قال غير ذلك ؛ فقل له مثل ذلك .

فلمَّا غدا الصَّيَّاد على الملك ؛ قال له : أخبرني عن السَّمكة ، أذكرٌ هي ، أو أنثى ؟ قال : بل أنثى ، قال الملك : فائتني بقرينها . فقال الصَّيَّاد : عمَّر الله الملك ! إنَّها كانت بكراً لم تتزوَّج بعدُ .

قلت : يا أبا عثمان ! فهل وقعت في مثل هذه المعضلة مع رئيس التَّحرير ؟

قال : لم ينفع عمَّك : أنَّ سمكته كانت بكراً ، فإنَّما يريدون إخراجه من الجريدة ، وما بلاغةُ أبي عثمان الجاحظ بجانب بلاغة التلغراف ، وبلاغة الخبر ، وبلاغة الأرقام ، وبلاغة الأصفر ، وبلاغة الأبيض . . . ولكنَّ ها هنا شيئاً لا أريد أن أقول .

وسمكتي هذه كانت مقالةً جوَّدتها ، وأحكمتُها ، وبلغت بألفاظها ، ومعانيها أعلى منازل الشَّرف ، وأسنى رتب البيان ، وجعلتُها في البلاغة طبقةً وحدها ، وقبل

أن يقول الأوربيُّون (صاحبة الجلالة الصَّحافة) قال المأمون : « الكتَّاب ملوكٌ على النَّاس » فأراد عمُّك أبو عثمان أن يجعل نفسه ملكاً بتلك المقالة ، فإذا هو بها من (صعاليك الصَّحافة) .

لقد كانت كالعروس في زينتها ليلة الخلوة على محبِّها ، ما هي إلا الشَّمس الضَّاحية ، وما هي إلا أشواقٌ ، ولذَّاتٌ ، وما هي إلا اكتشاف أسرارِ الحبِّ ، وما هي إلا هي ، فإذا العروس عند رئيس التَّحرير هي المطلَّقة ، وإذا المُعْجِبُ هو المُضْحِكُ ، ويقول الرَّجل : أمَّا نظريّاً ؛ فنعم ، وأمَّا عمليّاً ؛ فلا ؛ وهذا عصرٌ خفيفٌ يريد الخفيف ، وزمنٌ عاميٌّ يريد العاميَّ ، وجمهورٌ سهلٌ يريد السَّهلَ ، والفصاحة هي إعراب الكلام لا سياستُه بقوى البيان ، والفكر ، واللُّغة ، فهي اليوم قد خرجت من فنونها ، واستقرَّت في علم النَّحو .

وحسبُك من الفرق بينك وبين القارئ العاميِّ : أنَّك أنت لا تلحَن[1] وهو يلحَن .

قال أبو عثمان : وهذه ـ أكرمك الله ـ منزلةٌ يقلُّ فيها الخاصِّيُّ ، ويكثر العاميُّ ، فيوشك ألا يكون بعدها إلا غلبة العاميَّة ، ويرجع الكلام الصَّحافيُّ كلُّه سوقيّاً بلديّاً (حنشصياً) ، وينقلب النَّحو نفسه ، وما هو إلا التَّكلُّف ، والتَّوعُّر ، والتَّقعُّر كما يرونَ الآن في الفصاحة ، والقليل من الواجبات ينتهي إلى الأقلِّ ، والأقلُّ ينتهي إلى العدم . والانحدار سريعٌ يبدأ بالخطوة الواحدة ، ثمَّ لا تملك بعدها الخُطى الكثيرة .

لا جَرَمَ فسد الذَّوق ، وفسد الأدب ، وفسدت أشياء كثيرةٌ كانت كلُّها صالحةً ، وجاءت فنونٌ من الكتابة ما هي إلا طبائع كتَّابها ، تعمل فيمن يقرؤها عمل الطِّباع الحيَّة فيمن يخالطها ، ولو كان قانون الدَّولة تهمة إفساد الأدب أو إفساد اللُّغة ؛ لقبض على كثيرين لا يكتبون إلا صناعة لهوٍ ، ومسلاة فراغٍ ، وفساداً ، وإفساداً ؛ والمصيبة في هؤلاء ما يزعمون لك من أنَّهم يستنشطون القرَّاء ، ويلهونهم ، ونحن نعمل في هذه النَّهضة لمعالجة اللَّهو الذي جعل نصف وجودنا السِّياسيِّ عدماً ، ثمَّ

---

(١) « تلحن » : لحن القارئُ في القراءة ، والمتكلِّم في كلامه : أخطأ في الإعراب ، وخالف وجهَ الصَّواب في اللُّغة .

لملء الفراغ الَّذي جعل نصف حياتنا الاجتماعيَّة بطالةً ؛ وهذا أيضاً ممَّا جعل عمَّك أبا عثمان في هذه الصَّحافة من (صعاليك الصَّحافة) وتركه في المقابلة بينه وبين بعض الكتَّاب كأنَّه في أمس ، وكأنَّه في غدٍ .

ودُقَّ الجرس يدعو أبا عثمان إلى رئيس التَّحرير .

* * *

فما شككت : أنَّهم سيطردونه ، فإنَّ الله لم يرزقه لساناً مطبعيّاً ثرثاراً يكون كالمتَّصل من دماغه بصندوق حروفٍ . . . ولم يجعله كهؤلاء السِّياسيِّين الَّذين يتمُّ بهم النِّفاق ، ويتلوَّن ، ولا كهؤلاء الأدباء الَّذين يتمُّ بهم التَّضليل ويتشكَّل .

ورجع شيخنا كالمخنوق أُرخِيَ عنه وهو يقول : ويلي على الرَّجل ! ويلي من الكلام الظَّريف الذي يقال في الوجه ليَدفع في القفا . . . كان ينبغي ألا يملك هذه الصَّحافة اليوميَّة إلا مجالس الأمَّة ؛ فذلك هو إصلاح الأمَّة ، والصَّحافة ، والكتَّاب جميعاً ؛ أمَّا في هذه الصُّحف فالكاتب يخبز عيشه على نارٍ تأكل منه قدْر ما يأكل من عيشه ، ولو أنَّ عمَّك في خفضٍ ، ورفاهيةٍ ، وسعةٍ ؛ لكان في استغنائه عنهم حاجتُهم إليه ؛ ولكن السَّيف الَّذي لا يجد عملاً للباطل ، تفضُله الإبرة التي تعمل للخيَّاط ، وماذا يملك عمُّك أبو عثمان ؟ يملك ما لا ينزل عنه بدول الملوك ، ولا بالدُّنيا كلِّها ، ولا بالشَّمس ، والقمر ؛ إذ يملك عقله ، وبيانه ، على أنَّه مستأجَرٌ هنا بعقله ، وبيانه : يعقل ما شاؤوا ، أو يكتب ما شاؤوا .

لك الله أن أصدقك القول في هذه الحرفة اليوميَّة : إنَّ الكاتب حين يخرجُ من صحيفةٍ إلى صحيفةٍ تخرج كتابته من دينٍ إلى دينٍ .

ورأيت شيخنا كأنَّما وضع له رئيس التَّحرير مثلَ البارود في دماغه ، ثمَّ أشعله ، فأردت أن أمازحه ، وأسرِّي عنه ، فقلت : اسمع يا أبا عثمان ! جاءتني بالأمس قضيَّة يرفعها صاحبها إلى المحكمة ، وقد كتب في عُرْضِ دعواه : أنَّ جار بيته غصَبَه قطعةً من أرض فِنائه الَّذي تركه حول البيت ، وبنى في هذه الرُّقعة داراً ، وفتح لهذه الدَّار نافذاتٍ ، فهو يريد من القاضي أن يحكم بردِّ الأرض المغصوبة ، وهدم هذه الدَّار المبنيَّة فوقها ، و . . و . . وسدِّ نافذاتها المفتوحة . . . !

فضحك الجاحظ حتَّى أمسك بطنه بيده ، وقال : هذا أديبٌ عظيمٌ كبعض الَّذين

يكتبون الأدب في الصَّحافة ؛ كثرت ألفاظه ، ونقص عقله . « وسُئِل بعض الحكماء : متى يكون الأدب شَرّاً من عدمه ؟ قال : إذا كثر الأدب ، ونقصت القريحة . وقد قال بعض الأوَّلين : من لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه ؛ كان حتفه في أغلب خصال الخير عليه ، وهذا كلُّه قريبٌ بعضُه من بعض »[1] والأدب وحده هو المتروك في هذه الصَّحافة لمن يتولاه كيف يتولاه ؛ إذ كان أرخص ما فيها ، وإنَّما هو أدبٌ ؛ لأنَّ الأمم الحيَّةَ لا بدَّ أن يكون لها أدبٌ ، ثمَّ هو بعد هذا الاسم العظيم ملء فراغٍ لا بُدَّ أن يُملأ ، وصفحة الأدب وحدها هي التي تظهر في الجريدة اليوميَّة كبقعة الصَّدأ على الحديد : تأكل منه ، ولا تعطيه شيئاً .

ثمَّ يأتي من تترك له هذه الصَّفحة إلا أن يجعل نفسه (رئيس تحريرٍ) على الأدباء ، فما يدع صفةً من صفات النُّبوغ ، ولا نعتاً من نعوت العبقريَّة نَحَله نفسه ، ووضعه تحت ثيابه ، وما أيسر العظمة ! وما أسهل منالها إذا كانت لا تكلفك إلا الجراءة ، والدَّعوى ، والزَّعم ، وتلفيق الكلام من أعراض الكتب وحواشي الأخبار !

وقد يكون الرَّجل في كتابته كالعامَّة ، فإذا عبته بالرَّكاكة ، والسُّخف ، والابتذال ، وفراغ ما يكتب ، قال : هذا ما يلائم القرَّاء ، وقد يكون من أكذب النَّاس فيما يدَّعي لنفسه ، وما يهوِّل به لتقوية شأنه ، وإصغار مَنْ عداه ، فإذا كذَّبه من يعرفه ؛ قال : هذا ما يلائمني ، وهو واثقٌ : أنَّه في نوع من القرَّاء ليس عليه إلا أن يملأهم بهذه الدَّعاوى كما تملأ السَّاعة ، فإذا هم جميعاً يقولون : تك ، تك ، تك ، تك . . . . . .

فمن زعم : أنَّ البلاغة أن يكون السَّامع يفهم معنى القائل ؛ جعل الفصاحة واللكنة ، والخطأ والصَّواب ، والإغلاق والإبانة ، والملحون والمعرب كلَّه سواءً ، وكلَّه بياناً[2] وكان المكيُّ طيبَ الحجج ، ظريفَ الحيل ، عجيبَ العلل ، وكان يدَّعي كلَّ شيءٍ على غاية الإحكام ، ولم يحكم شيئاً قطُّ من الجليل ، ولا من الدَّقيق ، وإذ قد جرى ذكره ؛ فسأحدِّثك ببعض أحاديثه ، قلت له مرَّةً : أعلمت :

(١) هذه الجملة من كلام الجاحظ . (ع) .

(٢) هذا من كلام الجاحظ . (ع) .

أنَّ الشاري حدَّثني : أنَّ المخلوع ـ أي الأمين ـ بعث إلى المأمون بجرابٍ فيه سمسم كأنَّه مخبره : أنَّ عنده من الجند بعدد ذلك ، وإنَّ المأمون بعث له بديكٍ أعور ، يريد أنَّ طاهر بن الحسين يقتل هؤلاء كلَّهم كما يلقط الدِّيك الحبَّ ؟

قال : فإنَّ هذا الحديث أنا ولدته ، ولكن انظر كيف سار في الآفاق[1] .

ثمَّ قال أبو عثمان : وقد زعم أحد أدبائكم : أنَّه اكتشف في تاريخ الأدب اكتشافاً أهمله المتقدِّمون ، وغفل عنه المتأخِّرون ، فنظر عمُّك في هذا الَّذي ادَّعاه ، فإذا الرَّجل على التَّحقيق كالَّذي يزعم : أنَّه اكتشف أمريكة في كتاب من كتب الجغرافيا[2] .

وما يزال البلهاء يصدِّقون الكلام المنشور في الصُّحف ، لا بأنَّه صدقٌ ، ولكن بأنَّه « مكتوبٌ في الجريدة » . فلا عجب أن يظنَّ كاتب صفحة الأدب ـ متى كان مغروراً ـ أنَّه تهدَّد إنساناً ، فما هدَّده بصفحته ، بل بحكومته .

نعم أيُّها الرَّجل إنَّها حكومةٌ ؛ ودولةٌ ؛ ولكن ويحك : إنَّ ثلاث ذباباتٍ ليست ثلاث قطعٍ من أسطول إنجلترا !

* * *

وضحك أبو عثمان ، وضحكتُ ! فاستيقظتُ .

* * *

---

(١) هذا من كلام الجاحظ . (ع) .

(٢) يعني : زكي مبارك في دعوى معرفته أوَّل من اخترع فَنَّ المقامات . (س) .